المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

المجلد السابع والعشرون ـ العدد الاول ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م

رئيس التحرير

الدكتور محمد عبد المطلب البكاء

الهيئة الاستشارية

الاستاذ هلال ناجي — ا. د محمود عبد الله الجادر

ا.د. سامي مكي العاني — ا. د عماد عبد السلام رؤوف

الاستاذ اسامة الخشبندي

مدير التحرير : د. هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير : صادق هامل دركال

علاقات التحرير : دنيا خليل

الاشراف اللغوي والتصحيح : خالد الخزرجي / دنيا كوثر

التصميم والتنفيذ : ميسون حامد نجم

عنوان المراسلة

* دار الشؤون الثقافية العامة ـ الاعظمية ـ ص.ب ٤٠٣٢ ـ بغداد ـ جمهورية العراق

الاسعار :

(*) العراق (٢٠٠) دينار البلدان العربية (٥٠) دولاراً او ما يعادلها ، الدول الاجنبية (٧٥) دولاراً او ما يعادلها .

* في هذا العدد

لم تنل المرأة العربية في الدراسات التاريخية قسطاً كبيراً من العناية والاهتمام المطلوبين ، وما جاء من أخبار متفرقة في ثنايا التراث العربي ، لا يسهم في ايضاح تلك المكانة التي اخذتها المرأة العربية على صعيدي الحياة الفكرية والاجتماعية . وبذا سيكون (ملف العدد : المرأة العربية : اسهام وتاريخ) ، والذي سلطنا فيه الضوء على مكانة المرأة العربية المسلمة ودورها الحضاري جهداً متواضعاً بعد أن ترعرعت في كنف الاسلام آلاف النساء اللواتي نهلن من أصناف العلوم حتى نافسن الرجال .. وفرضن وجودهن على حياة عصرهن .

فضلاً على اسهامات المرأة الجهادية التي نشأت في قوم غلب عليهم رقة الحس ، وحدة النفس . وخوض مناهل الدم دفاعاً عن قيم الحياة الجديدة ومبادئها ... لا فرق في ذلك بين مشرق الوطن العربي ومغربه .

إننا نامل في هذا الملف إماطة اللثام ، ليظهر أثر المرأة العربية المسلمة ناصعاً في واجهة تراثنا العربي والاسلامي .. فالحديث عن الدور التاريخي للمرأة بعد أن أخذت دورها العملي والعلمي ضمن الاطر الصحيحة لابد أن ينعكس على رفض النظرة التي تجعل من المرأة إنساناً هامشياً . الصفحات ٣٣ ـ ٩٦

ملف المرأة

المرأة المسلمة ودورها الحضاري

عبدالعزيز بنعبد الله

مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي / المغرب

يستند المؤرخون أن جميع الاديان والامم قبل العرب، أساءت الى المرأة، فقد كان الاغريق يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المنزل، وكان جميع قدماء المشرعين يظهرون القسوة نفسها على المرأة، ومن ذلك قوانين الهندوس، وكان الصينيون والروس والايطاليون والاسبان وقبلهم الرومان يحتقرون المرأة، كما تدل على ذلك الامثال السائرة عندهم، وتعتبر جميع الشرائع الهندوسية والاغريقية والرومانية والحديثة المرأة - كما يقول جوستاف لوبون - من فصيلة الاماء او الصبيان، وقد انعقد ابان البعث النبوي مؤتمر في بلاد الرومان تساءل: هل للمرأة روح ؟ وأجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها تباع وتشترى ويتصرف فيهن الرجل كيف يشاء.

وتطورت الآراء في أوربا حول المرأة حتى تبلورت خلال القرن الثامن عشر في نظريات أوجست كونت Auguste Comte الذي هو أبعد الفلاسفة عن فكرة الطبيعة الاباحية في المرأة.

فما هو الوضع الذي أعطاه هذا العالم للمرأة في فلسفته الايجابية التي كان لها أكبر الاثر في تكييف نظريات عصره في الميدان الاجتماعي ؟.

يقول الفيلسوف: إن الرجل والمرأة يهدفان الى غايات متباينة في الحياة، فمرمى الرجل هو العمل، وغاية المرأة الحب والحنان، والواجب يدعو الرجل إلى قيادة نشاط الامة بينما على المرأة الانصياع وبذل النصيحة والتاثير الاخلاقي والتهذيب، لانها تتشخص الحب وترمز الى قوة العاطفة والقلب وتمثل روح التجانس والتقارب، فقوى الجنسين متكاملة، واذا ما تنافست هذه القوى فيما بينها فانها تتمخض عن السعادة المنزلية والوحدة العائلية.

وهذا النظام الذي يجعل المرأة خاضعة للرجل يسند إليها مهمة رائعة في الحياة الخاصة بينما يحظر عليها التسرب الى الحياة العمومية، ومن هنا انبثق الاحتجاج ضد «أوجست كونت» الذي اخذ عليه أنصار حرية المرأة حصرها في نطاق ضيق، ولكن «الفيلسوف الايجابي» يرد على خصومه بان إنافة الرجل على المرأة هو ظاهري فقط لان للمرأة تفوقاً ناصعاً على الرجل في الميدان الاجتماعي لانها مجبولة على المرونة الاجتماعية وهي عامل المحافظة والتوازن في الهيكل الاجتماعي، وحتى في الزواج لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة لان لهما حقوقاً وواجبات مختلفة: فالرجل قوام على البيت وهو الذي يمثل المرأة كما يقول الفيلسوف العصري، لان المرأة يجب أن تجرد من هموم العادة، فناموس التطور الحديث يقضي، في فلسفة كونت الايجابية بجعل الحياة النسوية منزلية يوماً عن يوم، وتجريدها أكثر ما يمكن من كل عمل خارجي لكفالة وجهتها العاطفية. ويذهب هذا الفيلسوف الى حد حرمان المرأة من الارث بالمرة نظرا لكون التكاليف المادية منوطة بالرجال وحدهم.

ثم جاء العالم برودون Proudhon فذكر في كتابه «العدالة» ان الرجل والمرأة غير متساويين وانهما متكاملان، ويبرهن على أن الرجل يتفوق على المرأة من ثلاث نواح: مادياً وفكرياً وأدبياً، فالتفوق المادي ظاهر، والتفوق الفكري راجع لعجز المرأة عن تصور النسب بين الاشياء فهي قادرة على تصور الامور منفصلة بعضها عن بعض، ومن هنا جاء انصرافها للروحيات والشعر لا للعلوم، فللمرأة القدرة على الاختذاء لا على الابتكار والخلق، لهذا لم نرها في مختلف مراحل التاريخ حققت اكتشافا علمياً أو أسست مدرسة أدبية أو فنية. وقد ذهبت مدام جورج صاند الروائية الفرنسية الشهيرة الى حد القول بان «المرأة بليدة بالطبع». ولا شك ان هذا الحكم الصارم الذي صدر من امرأة ضد المرأة راجع الى الوضع الخاص الذي يجعل المرأة في نظر برودون محرومة من «روح الجمع والتاليف» عاجزة عن سبر غور الاشياء وادراك الروابط الدقيقة التي تجعل من جزئيات مختلفة كلاً متناسقاً ووحدة متراصة، فهي تلهم كل فكرة على حدة، ولكنها تتقاعس عن

تصور الفكرة العامة ، فالرجل أقوى فكرياً من المرأة بنسبة تسعة الى اربعة ، وخلقياً بنسبة ثلاثة الى اثنين ، ويمكن تلخيص هذه النسب والقول بان الرجل يفوق المرأة في المجموع بنسبة سبعة وعشرين الى ثمانية .

والمرأة تفوق الرجل في الجمال ، ومن هنا تقيده وتحدوه الى العدالة ، وميزة الجمال هذه هي التي تضفي على مهمة المرأة الاجتماعية مغزاها الكامل .

والجمال هنا جسماني وفكري لان جثمان الرجل يتملى بجمال المرأة الظاهر بينما يتملى روحه بجمال روحها وروعة نفسيتها التي هي مرآة للرجل ، فكثيراً ما تساند المرأة زوجها وتحول بينه وبين الانهيار ولا يتقبل الرجل نظام الزوجية الا بفضل مثالية المرأة .

اما جول ويشليه Michelet فانه استمد نظريته في المرأة من الثورة الفرنسية ، وقد ذكر في كتابه « المرأة » ان دور هذه في الحياة هو اضفاء طابع السمو على كل شيء حولها ، فهي الشعر الذي يستمد منه الرجل شجاعته كما يستروح منه الطفل مثاليته ، وهي الينبوع الخلقي في العائلة ، كما ان الدين هو مثار الفضيلة في المجتمع ، فالمرأة هي الطبيب الحق .

تلك نظريات فلسفية في المرأة كان لها تاثير كبير في التطور النسوي في أوربا في العصر الحديث ، مما جعل المرأة تتحرر في جرمانيا ، مثلاً ، بفرض ثقة كاملة في دورها الاجتماعي والتهذيبي ، وكذلك في فرنسا حيث صرفت المرأة جهودها لاسترجاع مكانتها داخل المنزل ولمشاطرة الرجل في الحقل الادبي الكتابة والتاليف .

ولكن تطور العلوم ساعد المرأة أكثر من دعوة الفلاسفة الى الانبثاق ، فخرجت المرأة في أوربا الى معترك الحياة لتكون طبيبة ومحامية وتاجرة وممثلة .

واذا كانت المرأة الاوربية قد تحررت داخل اطار الاعراف فإن القوانين المتعلقة بها لم تتغير الا قليلاً ، فهي ما زالت سجينة القانون ، لا سيما في فرنسا ، حيث لا يطلق لها مثلاً كامل التصرف في مالها كما عند المرأة المسلمة منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً ، وقد بدأت المرأة الفرنسية تتمتع ببعض الحقوق منذ ١٩٠٨ .

فقد تمتعت المرأة العربية حتى قبل الاسلام بمركز اجتماعي لم تحظ به النساء في كثير من أقطار أوربا حتى في العصور الحديثة ، وقد ذكر غوستاف لوبون ان الاسلام كان ذا تاثير عظيم في حال المرأة في الشرق ، فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعي خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى ، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية احسن بكثير مما في القوانين الاوربية .. واذا اردنا ان نعلم درجة تاثير القرآن في أمر النساء وجب ان ننظر اليهن ايام ازدهار حضارة العرب ، فقد ظهر مما قصه المؤرخون أنه كان لها من الشان ما اتاق لاخواتها حديثاً في اوربا ، وذلك حين انتشار فروسية عرب الاندلس [1] ، وقد لعبت المرأة المسلمة أدواراً في منتهى الخطورة ايام كان منها النساء العالمات البارعات والشواعر الماهرات ممن ذاع صيتهن في العصر العباسي في المشرق وفي العصر الاموي في الاندلس .

نعم ان المرأة المسلمة لم تحتفظ بهذا الوضع السامي الذي خولها الاسلام اياه مما جعل تطورها يتحجر أحيانا . وقد أشار ابن رشد الى سوء وضع المرأة في الشرق من عدم تمكينها من إظهار قواها كانها لم تخلق الاّ للولادة ، وارضاع الطفل .

ولعل الغريب في النظريات الفلسفية هو ان ابن رشد هذا قد اعترف للمرأة بميزات سامية لم يعترف لها بها حتى أولئك الفلاسفة المحدثون الذين درسنا نظرياتهم ، وذلك حين أكد في تعليقه على جمهورية أفلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع وانما هو اختلاف في الحكم ، أي أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهن أضعف منهم في الاعمال ، والدليل على ذلك مقدرتهن على القيام بجميع أعمال الرجال كالحرب والفلسفة وغيرهما ، ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال .

وقد صقلت الحياة العربية نفسية المرأة فجعلت منها شاعرة بارعة وخطيبة مفوهة ، وقد أحصيت من بين أبرع هؤلاء الشواعر نحو الثلاثين ، منهن : أروى بنت عبد المطلب ، وأم الخير الخطيبة ، وأميمة أم تابط شرا ، والحارثية المشهورة بالحماسة والفخر ، وحليمة الموصوفة بالحكمة ، وحميدة التي كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيباً تهجوه بالشعر حتى خشي لسانها العرب ، وسعدى التي تغنت بعشقها ، وصفية ابنة مسافر التي تلونت في أساليب البلاغة ، وعمرة ذات الشعر المحكم وراوية العرب ، وعمرة الخثعمية الحماسية ، وفاطمة الخثعمية الحماسية ، وفاطمة الخثعمية الكاهنة ، وفاطمة الخزاعية التي لم يكن شعرها يخرج عن الحكم والامثال ، وناجية التي شاركت في الحروب وحرضت على القتال .

وفي هذه المجموعة من الشواعر العربيات ألوان شتى تعطينا صورة عما بلغته المرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام من مكانة في الادب والشعر في أدق جوانبه وأعرق فنونه .

وعندما جاء الاسلام انفسح الميدان أمام المرأة ، فشاركت الرجل في العلوم النقلية والعقلية ، وطرقت أبواب الشعر وابتكرت في الغناء ، وأصبحت كاتبة بارعة بينما كانت من قبل تقرض الشعر سليقة ، ذلك ان الاسلام لم يجد عند العرب سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن ، منهن حفصة بنت عمر[2] .

ولقد ترعرعت في أحضان الاسلام الآلاف من النساء اللواتي

عركن أصناف العلوم حتى نافسن الرجال ، وفرضن وجودهن وأصبحن أستاذات لكبار علماء عصرهن ، وقد ترجم ابن حجر في الاصابة لـ ١٠٤٣ امرأة كان من بينهن العالمات والفقيهات واللغويات والمحدثات [٣] وخصص الامام النووي في « تهذيب الاسماء » والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » والسخاوي في « الضوء اللامع » حيزاً كبيراً لترجمة النساء العالمات ، وقد ذكر السخاوي أن السيدة ملك سمعت معه على بعض مشايخه في القاهرة وسمع هو منها في دمشق ، وقد اتهم الذهبي أربعة آلاف من المحدثين ، ولكنه قال عن النساء المحدثات « ما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها »[٤] ، وترجم السيوطي لـ ٣٧ شاعرة واقتطف نماذج رائعة من أشعارهن في كتابه المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق والموسوم بـ « نزهة الجلساء في أشعار النساء »[٥] ، وتتلمذ الامام ابن عساكر على احدى وثمانين امرأة أخذ عنهن العلم [٦] ، وقد أفرد المقري فصلاً لنساء الاندلس وأخذ هو نفسه عن الكثيرات منهن كما تتلمذ عليهن ابن الاثير والحافظ الذهبي مؤرخ الاسلام .

ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتأت لامة أخرى أن تحظى بها في مختلف الاعصار والامصار ، وقد قال عروة في عائشة الصديقية : « ما جالست أحداً قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا بطب من عائشة ، وقد وفدت الصحابية أم الدرداء على بيت المقدس وكانت تعقد حلقات التدريس فيحضرها سليمان بن عبد الملك ، وأخذ الامام الشافعي الحديث عن السيدة نفيسة وضمته حلقتها في القاهرة وقامت بالصلاة عليه بعد موته ، وحكى ابن خلكان [٧] عن نفيسة هذه أنها كانت تلقى محاضرات يجلس للانصات إليها مشاهير العلماء ، وكانت عائشة الحنبلية احدى أستاذات ابن حجر العسقلاني في الحديث ، وقد تتلمذ ابن حجر لزينب بنت محمد بن عثمان الدمشقية المحدثة الفقيهة وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالباً للحديث ، كما تتلمذ ابن حجر ايضاً لزينب بنت عثمان بن محمد التي كانت لها اليد الطولى في علوم السنة ولها رسائل في الفقه والحديث استند عليها كثير من العلماء ، وفي العصر نفسه كانت فاطمة بنت المهدي زوجة لاحد العلماء وكان زوجها يرجع إليها فيما يشكل عليه فاذا ضايقه الطلبة استشارها ، وقد درس ابن خلكان على أم المؤيد ، وأخذت هي عن الزمخشري « صاحب الكشاف » وذكر ابن العماد الحنبلي في شذراته عن أم الخير وتخصصها في علم الحديث « أن أهل الارض نزلوا درجة في العلم بموتها » ، وقد تتلمذ على عنيدة خمسمائة رجل وامرأة[٨] ، وقرأ الخطيب البغدادي صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزي التي أسهمت بنصيب كبير في تكوينه[٩] وهي حافظة من رواة البخاري [١٠] ، وقد حدثت رقية حفيدة ابن مزرع بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس والمزي وألقت محاضرات في المدينة وهي من مشاهير المحدثين ، وأخذت بمسند الشافعي عن الزبيدي ، وذكر الصفدي أنها كانت محدثة عصرها وروى عنها مشاهير العلماء ، وقد برعت عائشة بنت علي الدمشقية في النحو والصرف والبيان والعروض والحديث وفتحت حلقة للتدريس ، وكانت عائشة المقدسية (من حفدة ابن قدامة المقدسي) سيدة المحدثين بدمشق سمعت البخاري على الحجار وروى عنها ابن حجر وقرأ عليها كتباً عديدة وانفردت في آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة في تعليم العلوم لينة الجانب للتعليم ، وقد فاقت المروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون هذا الاخير في النحو واللغة والعروض وكانت تحفظ « كامل » المبرد و « نوادر » القالي وتشرحهما ، وكانت فاطمة بنت الشيخ جمال الدين الدمشقي من المحدثات أجازها معظم علماء القرن السابع في الشام والعراق والحجاز وفارس ، والفقيهة فاطمة السمر قندية زوجة علاء الدين القاشاني ألفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث وانتشرت مصنفاتها بين العلماء ، وبلغت شهدة الدينورية بين علماء القرن الثاني عشر منزلة في اسناد الحديث لم يبلغها أحد حتى لُقِّبتْ بـ « مسندة العراق » ولها رسائل عديدة في الحديث والفقه والتوحيد ، ولبنى الاندلسية العالمة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم ، وقد تولت عالمة زمانها فاطمة بنت قمر يزاو المتوفاة عام ٩٦٦ مشيخة مدرسة الزجاجية ومدرسة العادلية وانتهت اليها الرياسة بحلب .

أما الشواعر والاديبات والكاتبات اللواتي نبغن في الاسلام فهن كثيرات جدا منهن حسب حروف الهجاء : أسماء العامرية التي مدحت عبد المؤمن بن علي في قصيدة طلبت منه فيها رفع الضريبة عن دارها والحجر على أموالها ، وأم العلاء الحجارية التي لها قصائد وموشحات ذكرها صاحب المغرب ، وأم الكرام ابنة المعتصم صاحب المرية صاحبة الموشحات ، وأمة العزيز الاندلسية التي ذكر جملة من شعرها ابن دحية في « المطرب من أشعار المغرب » ، وبثينة ابنة المعتمد ، وتقية ابنة أبي الفرج ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه وأخذت عنه العلم بالاسكندرية ونظمت القصائد الخمرية والحربية مبرهنة عن طول باع المرأة في كل ذلك ، وحفصة بنت حمدون الاندلسية ، وحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب ، والشاعرة الشلبية التي كانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء والتي وجهت الى يعقوب المنصور بقصيدة تتظلم فيها من ولاة شلب ، وعائشة القرطبية التي كانت تمدح الملوك وترتجل الشعر ارتجالاً ، وروى ابن حيان أنها أعقل بنات عصرها ،

وعائشة الباعونية صاحبة القصيدة البديعية التي نظمتها على منوال تقي الدين بن حجة والتي درست في الشام ومصر وأجاز لها العلماء بالافتاء والتدريس ولها مؤلفات في الادب والفقه وديوان شعر وكانت تكاتب الادباء وتستفتي في المشاكل اللغوية والفقهية والادارية وتجتمع بالملوك فتجد منهم آذاناً مصغية ، وعائشة التيمورية ، وعليه بنت المهدي أخت الرشيد لها ديوان شعر ، وعمرة ابنة الخنساء ، والشاعرة الغسانية من شواعر الاندلس الموصوفات في المائة الرابعة ، وفضل الشاعرة من مولدات البصرة ولبانة زوجة الامين بن هارون الرشيد ، وليلى الاخيلية ، ومهجة القرطبية صاحبة ولادة بنت المستكفي الشاعرة التي كانت تناضل الشعراء وتجادل الادباء وتفوق البرعاء ، وكانت زوجة الفرزدق أديبة نقادة يحتكم إليها شعراء العصر ، كما كانت مريم بنت أبي يعقوب الانصاري تعلم النساء الادب ولا يخلو كتاب من كتب التراجم او الادب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية في مختلف الميادين .

وقد ساق غوستاف لوبون في « حضارة العرب » جملة من هؤلاء من بينهن فاطمة التي كانت تنسخ للحكم الثاني والتي أعجب العلماء برسائلها في الفنون والعلوم ، وخديجة الشاعرة ، ومريم التي كانت تعلم بنات الاسر الراقية في اشبيلية العلم والشعر فتخرجت في مدرستها نساء بارعات ، وراضية نابغة عصرها في القريض والقصص الرائعة والتي جالت في الشرق حيث كانت محط هتاف العلماء في كل مصر . وورد في « خلاصة الاثر »[10] أن بنت ابن الصائغ صارت شيخة للطب بدار الشفاء المنصورية بمصر بعد وفاة والدها .

ويذكرون من بين صالونات الادب التي كانت مجمعاً لكبار المفكرين مجلس سكينة في الحجاز ، ومجلس علية بنت المهدي ، ومجلس الفضل في بغداد ، ونزهون في غرناطة ، وولادة بنت المستكفي ، وتحدث ابن جبير عن مجالس العلم والادب التي شاركت فيها المرأة بحضوره في القرن السادس .

وهكذا انفسح مجال العلم أمام المرأة المسلمة في مختلف الاعصار والامصار ، وقد أثار القلقشندي صاحب « صبح الاعشى » مشكلة الثقافة النسوية فقال : « لم يرو أن أحداً من المتقدمين أنكر على النساء هذا الحق » .

أما في الميدان العسكري فقد ذكر الطبري[11] أن النساء كن يجهزن الجيش في حروب القادسية ، وضربت صفية المثل الرفيع في البطولة الاولى للمرأة المسلمة[12] وشهدت أم سليم والدة أنس بن مالك المغازي كلها[13] ، وشاركت أم عمارة مع زوجها في غزوة أحد وحرب اليمامة ، وأصيبت اثنتي عشرة اصابة في غمرة المعارك ، وصاحت خولة في جموع النساء بدمشق فاسقطن ثلاثين جندياً للعدو ، ونقل ادوارد جيبن في تاريخه هذه الوقعة فقال : « كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديراً بالإجلال والتقدير اذ كانت المسلمات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمي السهام واستطعن بتلك الخلال أن يحافظن على عفافهن في ظرف دقيق وموقف حرج » . وفي موقعة اليرموك ثارت الغيرة والحمية في النساء فبرزن من خيامهن واقتلعن أعمدتها وحملن ما استطعن حمله من السلاح وأنزلن بالعدو هزيمة نكراء . وذكر ابن الاثير أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم . وتقدمت جويرية أخت معاوية بفرقة من النساء وأخذت تناضل في اليرموك حتى جرحت . وفي يوم التعوير (اليرموك) كانت أسماء بنت أبي بكر تقاتل الى جانب زوجها الزبير بن العوام . وبارزت غزالة الحجاج فلاذ بالفرار . وكانت والدة أسامة وأخته تحاربان في الحروب الصليبية . وفي الهند قتلت رضية سلطانة الاسد بضربة من سيفها البتار ، وكانت تتخذ زينتها من الاسلحة والدروع . وفي احدى الغزوات نشر النساء خُمُرَهُنَّ وجعلنها رايات وزحفن نحو العدو حتى ظن المشركون أنها نجدة وانهزموا[14] . وكان لخزانة ابنة خالد حظ وافر من الادب والفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص وخاضت معه المعامع وحضرت معركة الحَرَّة ، وكانت خولة الكندية تفوق الرجال فروسية وبسالة ، وحضرت مزروعة الحميرية وفتوح الشام ومصر مع خالد بن الوليد . وفي القرون الاخيرة اخذت نساء مصر العساكر الفرنسية الى دورهن وقتلنهم ورميهم في الابار[15] .

أما في الموسيقى والغناء فهنالك المئات ممن كانُ لهن الباع الطويل والبراعة الخارقة وقد ذكر معبد عن جميلة الخزرجية أنه لولاها لما كان هو وزملاؤه مغنين وكان يتحاكم اليها أهل الفن في مكة والمدينة والبصرة . وتعتبر عزة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز وأخذت الحاناً غريبة وفتنت أهل المدينة رجالاً ونساء .

ولم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الامصار الاسلامية الى يومنا هذا من نساء نافسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وصيانة . وقد يخيل للناس أن المرأة المسلمة انحطت في المجموع بالنسبة للمرأة الاوربية ، ولكن مؤلف « حضارة العرب » الذي صنف كتابه عام ١٨٨٠ أكد « أن حالة النساء المسلمات في عصره كانت أفضل من حالة أخواتهن في أوربا » . وأنه اذا كان هنالك انخفاض في مستواهن فقد حدث « خلافاً للقرآن لا بسبب القرآن » . وزادت النهضة الحديثة المرأة المسلمة شعوراً بمركزها الممتاز الذي خوله الاسلام إياها الذي ضرب المثل السامي فيه نساء كن رمز النبوغ والطهر والعفاف أزيد من ثلاثة عشر قرناً وقد ذكر صاحب « تخريج الدلالات السمعية »[16] من ولاه عمر من النساء أمر السوق . وذكر صاحب « العقد الثمين »[17] الشفاء وتوليها أمر

السوق وتعليمها النساء الكتابة . وتولت قهرمانة لام المقتدر المظالم فكانت تجلس يوماً في كل أسبوع [١٨] .

هذا وقد لعبت المرأة المغربية دوراً بارزاً في المجتمع في مختلف مراحل التاريخ ، واذا لم يكن هذا الدور ناصعاً في كثير من الاحيان فانه لم يكن كذلك باهتاً اذا لاحظنا أن الوسط النسوي المغربي الذي نبغت فيه عالمات شهيرات كان قبل كل شيء مدرسة للتربية ومعملاً اقتصادياً ، فكانت المرأة ربة البيت وراعيته والمشرفة على الحقل والسوائم في البادية ، والصانعة الماهرة في الحضر والوبر ، وللمرأة حقوق اقتصادية أكثر مما للرجل لان الاسلام يخولها حق الانفاق في البر من مال زوجها بينما يحظر على هذا التصرف في مال زوجته بدون اذنها . وكانت المرأة في هذا وذاك محط احترام الرجل ومثار حبه الا في النادر ، بل ان بعض النساء أظهرن براعة ادارية ولباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لازواجهن الامراء والرؤساء ، وساهمت المرأة كذلك بحظ وافر في الاسعاف ورصد الاوقاف للمعوزين واقامة المعاهد ، ويكفي أن تعلم أن جامع القرويين انما أسسته فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام ٢٤٥ هـ ، بينما أقامت أختها مريم جامع الاندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالي القرن الرابع الهجري وصار بعد ذلك أكبر فروعها .

وقد نبغت في العهد الادريسي الاميرة الحسنى بنت سليمان النجاعي زوجة المولى ادريس الازهر الذي كان لا يفعل شيئاً الا بموافقتها ، وكانت اليها المشورة في دولته[١٩] وقد أشار محمد الكانوني في مخطوط له حول « شهيرات المغرب » الى بعض من نبغ من النساء ، فذكر عاتكة بنت الامير علي بن عمر بن ادريس زوجة الامير يحيى بن يحيى بن محمد التي كان لها أثر في مصير السياسة المغربية وخروج الدولة من بني محمد بن ادريس الى بني عمر بن ادريس ، وكان الناس قد قاموا على زوجها الذي مات بفاس غماً ، فاستنجدت هي بوالدها علي بن عمر صاحب صنهاجة وغمارة وغيرهما من الريف المغربي ، فجيش الجيوش وأخمد الثورة واسترجع فاساً عام ٢٨١ هـ . وقد ذكر صاحب المعجب [٢٠] ان في دولة الحفصيين الاندلسة لم يثبت محمد بن ادريس الا بفضل رباطة جاش والدته التي كانت تقوى منه وتشرف على الحرب بنفسها .

وفي عهد المرابطين اشتهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف بن تاشفين احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ، ولها بنى ابن تاشفين مدينة مراكش كما في « الاستبصار » ، وكذلك تميمة بنت ابن تاشفين التي كانت راجحة العقل جيدة الفادرة ، جمعت ثروة أشرفت على ادارتها بنفسها وكان لها كاتب تحاسبه . وقد لعبت قمر زوجة علي بن يوسف دوراً في سياسة الدولة وكان الامير يدبر كل الشؤون العمومية باشارتها . وكانت حواء بنت ابراهيم المسوفي تقرأ وتحاضر بالادب . كما كانت أختها زينب تحفظ جملة وافرة من الشعر . وكانت حواء بنت تاشفين من شهيرات نساء عصرها .

وقد قامت فاتو بنت عمر بن بنتيان بدور خطير في الدفاع عن الدولة اللمتونية ، فهي من البطلات التي يحق للمغرب ان يخلد ذكراهن ، فقد استماتت في الدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش ، وناضلت نصف يوم قبل ان يستسلم اسحق بن علي ويدخل الموحدون الى العاصمة عام ٥٤٥ هـ ، وقد أثار استبسال هذه العذراء اللمتونية اعجاب الموحدين في ذلك العصر .

وفي ايام الموحدين درست أم بنت القاضي عبد الحق بن عطية على ولدها وأخذ الناس عنها العلوم ، وهي والدة أبي جعفر أحمد الاديب طبيب المنصور ولها تاليف في الوعظ والارشاد[٢١] . وقد درست زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن علم الاصول على أبي عبد الله بن ابراهيم امام التعاليم والفنون فكانت عالمة . وحفصة الركونية كانت أستاذة نساء دار المنصور بمراكش وكانت أديبة زمانها[٢٢] بل أستاذة عصرها[٢٣] وهناك ايضاً أم عمرو بنت أبي مروان ابن زهر طبيبة دار المنصور كانت تداوي نساء القصر وأطفاله وكانت تستفتى في الطب ، ولها بنت هي ابنة أبي العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة ، وورقاء بنت يعتان الفاسية الاديبة الشاعرة ، وأم العلاء العبدرية نزيلة فاس كانت تعلم القرآن بفرناطة ، وأمة العزيز السبتية لها أشعار رائقة ، وأم العز العبدرية كانت مجودة بالسبع وروت عن أبيها صحيح البخاري ، وزينب الفرقولية سمعت على أبيها وكانت ضابطة متقنة وكانت زوجة عتيق الغساني نزيل مراكش واغمات أستاذة في القراءات السبع [٢٤] ، وأم المجد مريم بنت أبي الحسن الغافقي الذي فتح مدرسة للغرباء في سبتة وحبس عليهم أول مكتبة بالمغرب قد درست الحديث ووصفها بالعجوز المسندة محمد بن القاسم السبتي في « اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سني الآثار »[٢٥] ، وخيرونة الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلاجي امام اهل فاس في الاصول ولها الف العقيدة البرهانية على طريقة الاشعري .

ونبغت في عهد المرينيين فاطمة وأم هاني بنتا محمد بن موسى العبدوسي وهما فقيهتان ، وأم البنين الفقيهة جدة الشيخ زروق وسارة الحلبية الفاسية وهي استاذة شاعرة من طبقة عالية في الادب توفيت بفاس حيث اجازت عبد الله بن سلمون ولها قصيدة اجابت بها ابن رشد السبتي ومدحت في اخرى مالك بن المرحل . ومن النساء البارعات صفية العزفية السبتية وهي من فضليات نساء عصرها في العلم والصيانة ، وصبح جارية الحكيم الجزنائي فيلسوف المغرب وطبيب وكاتب

ديوان الانشاء في دولة أبي الحسن المريني لغتها العربية فنظمت الشعر ، وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي السبتي أجاز لها ابن رشيد عام وفاته ٧٢١ هـ[٣٦] ، وأمة الرحيم السبتية أجاز لها جماعة ، وأم قاسم زهرة جدة الامام حسن المرادي الاسفي المعروفة بالشيخة .

ولم تكن المرأة المغربية في هذه العصور تختلف عن اختها العربية في شجاعتها ورباطة جاشها لا سيما في الصحراء أو الجبال التي انبثق منها المرابطون والموحدون والمرينيون ، وكانت قبائل بني مرين تخرج بجميع العيالات في الحرب كما وقع في الغزاة التي تقابل فيها أبو يوسف بن عبد الحق مع يغمراسن بن زيان في تلمسان حيث برزت الجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجواري المولدات تقودها الرجال في احسن زي وأتم جمال[٣٧] .

وفي عهد الوطاسيين كان للسيدة الحرة صيت واسع في الميدان السياسي ، فقد وردت ترجمتها مطولة في مجلة هسبريس (النصف الثاني لعام ١٩٥٦ ص ٢٢٢) وولدت هذه السيدة عام ٩٠٠ هـ ودرست العلوم على عدة شيوخ ويظهر أنها درست اللغة الاسبانية لان والدتها لالة زهرة أندلسية تزوجت على ابن راشد قائد شفشاون عندما كان يجاهد وهو شاب في العدوة ، وبذلك كان للسيدة الحرة نوع من الاستعداد للدور السياسي الذي لعبته فقد تزوجت علي المنظري وانتقلت معه الى تطوان ، حيث وجدت وسطاً أندلسياً مثقفاً رقيق الحاشية كالذي ربيت فيه وكان زوجها في نضال مستمر مع البرتغاليين في طنجة واصيلاً ، وكذلك في سبتة مما ساعد السيدة الحرة على لمس الدسائس السياسية التي كانت تحاك في ذلك العصر ضد المغرب ، وعندما مات المنظري تزوجت مولاي علي بن عمر الحسني الذي ولدت منه[٣٨] بنتاً زوجتها لاحد حفدة المنظري الذي كان والده قائداً في تطوان والذي عرفت كيف تنحيه لتجعل صهرها الشاب في منصبه وتستبد هي نفسها بالقيادة المطلقة في تطوان وبالجهاد ضد المسيحيين ، وكان لها بواخر تقرصن في الشواطي الاسبانية كما كانت لها علائق طيبة مع الاتراك وسلطان فاس ، وفي عام ١٥٤١ تزوجت السيدة الحرة مولاي أحمد الوطاسي الذي تركها في تطوان وكلفها بالاتصال بالبرتغاليين ، وكان لها تشاحن مع والي سبتة التي كانت تطمح هي الى احتلالها بينما كان الوالي البرتغالي يطمع في تطوان لترويج منتجات بلاده داخل المغرب .

أما تمدين السعديين فقد تم على يد المريطة بنت بنجو التي لفتتهم مظاهر الحضارة الملوكية لا سيما داخل القصور والبيوتات[٣٩] ، وكان لمسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي عناية باصلاح السبل وعمارتها وتشييد الخانات بالاماكن الخالية وبناء القناطر (أصلحت جسر وادي أم الربيع عام ١٠٠٠ هـ) وتجهيز اليتامى وتزويج الارامل وهي التي أسست مسجد باب دكالة بمراكش عام ٩٦٥ واوقفت عليه نحو سبعين حانوتاً وغيرها وأقامت بازائه مدرسة للطلبة الغرباء ومكتبة وذخائر كتب على بعضها بخط يدها ، والاميرة سحابة الرحمانية أم عبد الملك الغازي التي لعبت دوراً كبيراً في حمل الخليفة التركي على اصدار أمره لوالي الجزائر بمساندة ولدها على استرجاع ملكه بالمغرب عام ٩٨٣ ، وأم كلثوم بنت الشيخ بناصر قرات الوغليسية في الفقه والبردة في السيرة . والنساء الناصريات في درعة متعلمات على وجه العموم ولا نطيل بسرد أسمائهن .

وفي العهد العلوي طار صيت الاميرة خناثة بنت بكار الضافرية زوج المولى اسماعيل ، فقد ذكر صاحب الجيش[٤٠] أنها حصلت العلوم ، وقد كتبت على هامش « الاصابة » لابن حجر ، وكانت تصدر عنها ظهائر ومراسيم في بعض الشؤون القبائلية في عهدي مولاي اسماعيل وولده عبد الله . وكان زوجها يستشيرها في بعض الشؤون ، وقد قال عنها الرحالة الاسحاقي أنها كانت لزوجها وزير صدق وبطانة خير .

ومن النساء العالمات عائشة بنت يونانع الفاسية والدة عبد المجيد الزيادي كانت تحضر مجالسه العلمية ، والزهراء بنت محمد الشرقي زوجة اليوسي كانت شيخة فقيهة أخذت عن زوجها بالاجازة جميع مروياته وأخذ عنها ابن أخيها اللغوي محمد بن الطيب الشرقي ، وخديجة بنت عبد الله الجوات كانت تعلم النساء المنقطعات ، وسكينة بنت السلطان مولاي عبد الرحمن كانت طلعة للكتب والدواوين ، والفقيهة فاطمة زويتين ، وأم قاسم الحسناوية ، ورقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الادبية الفقيهة العارفة بالعربية واللغة والتفسير والشعر والسيرة وأسرار الحروف والاسماء والتوحيد والبيان والصرف كان يدرس عليها الرجال والنساء مختلف الفنون ـ كما يقول الكانوني ـ وكانت في مجالس التفسير تتوخى أسباب النزول وعلوم القرآن وأنساب العرب والتاريخ توفيت أوائل القرن الرابع عشر ، وصفية بنت المختار العالمة في التجويد والتفسير والسيرة والنحو وكانت منتصبة للتدريس وهي شنكيطية ، ومثلها ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمي التي كانت راوية للاشعار ومشاركة في العلوم ، وأختها ربيعة التي كانت لها عارضة في الادب والشعر نقادة للشعراء ، وهند زوجة ماء العينين المشاركة في مختلف الفنون ، وخديجة بنت الامام محمد العتيق وكانت تبذ في العلم عالمات عصرها بل وكثيراً من علمائه ، وقد نبغت في الشعر فتاة من شنكيط اسمها مريم كما في « الوسيط في أدباء شنكيط »[٤١] .

وفي أوائل هذا القرن كانت العالية ابنة الطيب بن كيران

تدرس المنطق في جامع الاندلس من وراء حجاب ، وكان لها ضلع في مختلف الفنون ، وانلصدقنا رواية أحد طلبة القرويين الذين روى عنهم موليبراس حوالي سنة ١٨٩٥ م نلاحظ أن غالب نساء فاس كن قارئات لهن المام بالادب خصوصاً قصائد الامام الفرناطي ، وكان النساء يحضرن دروس العالية بعد العصر والرجال وقت الظهر ، وقد أورد السخاوي [٣١] عشرات من النساء الفاسيات .

ولا نكاد نحصي الاستاذات أو النسوة المثقفات اللواتي كن يعشن في حواضر المغرب وبواديه .

الهوامش :

(١) حضارة العرب : ص ٤٨٨
(٢) البلاذري ص ٤٥٨
(٣) الجزء الرابع : ص ٤٢٤ ـ ٩٨٤
(٤) ميزان الاعتدال : جـ ٣ ص ٣٩٥
(*) صدر الكتاب محققاً من قبل د . صلاح الدين المنجد ـ بيروت ـ دار الكتاب الجديد
(٥) ياقوت : معجم الادباء : ج ٥ ص ١٤٠ والنعيمي : ج ١ ص ١٠١
(٦) الوفيات : ج ٢ ص ٢٥١
(٧) المجلة الاسيوية سنة ١٩٣٠ ص ٥٠
(٨) ياقوت : ج ١ ص ٢٤٧ ، صلة ابن بشكوال : ج ١ ص ١٣٣
(٩) كامل ابن الاثير : ج ١٠ ص٢٦
(١٠) ج ١ ص ٢٠٤
(١١) ج ٦ ص١٧ ، ٢٣
(١٢) ابن الاثير
(١٣) أسد الغابة
(١٤) كامل ابن الاثير : ج ٢ ص ٢٠٧
(١٥) رسالة نقولا الترك ص ١١١
(١٦) ص ٢٧٥
(١٧) ج ٤ ص ٤٦١
(١٨) صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ص ٧١
(١٩) الدرر السنية ص ٨
(٢٠) ص ٤١
(٢١) ابن عبد الملك : التكملة .
(٢٢) الدرالمنثور في طبقات ربات الخدور ص ١٦٥
(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة
(٢٤) ابن عبد الملك : التكملة
(٢٥) ص ٥
(٢٦) أزهار الرياض
(٢٧) الذخيرة السنية ص ١٤٦
(٢٨) وهم كاتب المقال فاعتقد ان الست الحرة وعائشة أم ابن عسكر شخصية واحدة وهو خلاف ما يفهم من ابن عسكر في « دوحة الناشر » (الطبعة الحجرية ص ١٩ وقد نبه على هذا الغلط صديقنا الاستاذ محمد داود في « مختصر تاريخ تطوان » ص ٣١)
(٢٩) تاريخ الدولة السعدية ص ٢٥
(٣٠) ص ١٠٥
(٣١) ص ٣٣٧
(٣٢) الضوء اللامع : ج ١٢

*

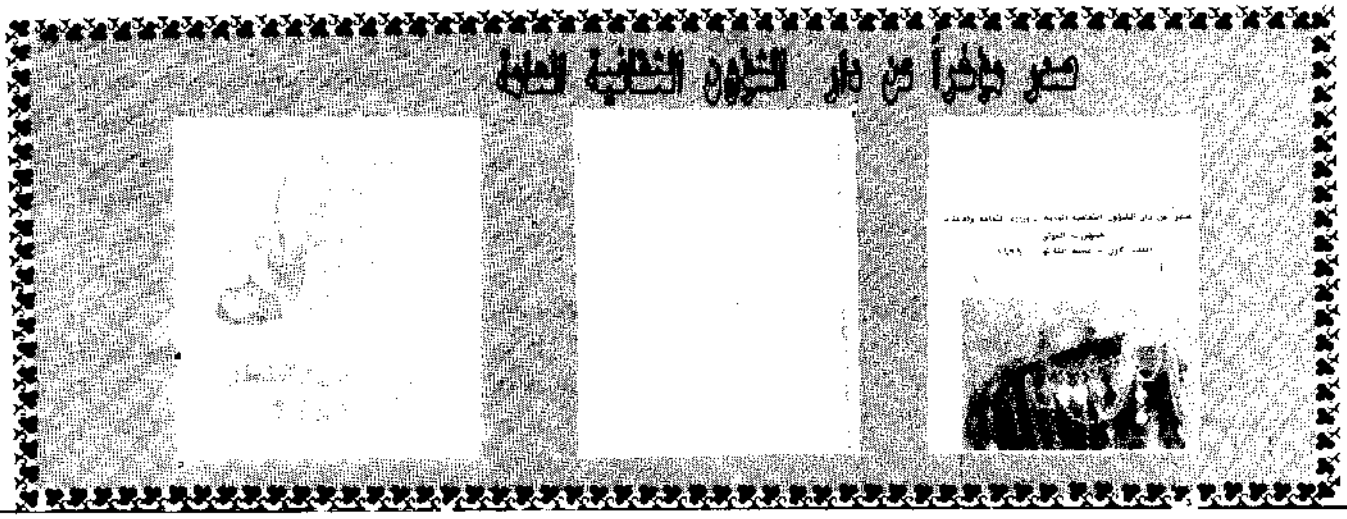

AL – MAWRID

BIANNUAL JOURNAL OF CULTURE AND HERITAGE
ISSUD BY
THE HOUSE OF PUBLIC CULTURAL AFFAIRS
THE MINISTRY OF CULTURE AND INFORMATION

Volume 27 – Number – 1 – 1999

Editor in Chief

Dr. MOHAMMAD A. ALBKA

صورة الغلاف / مقامات الحريري ، رسم الواسطي

السعر

تصميم الغلاف : سهاد الدوري